رِحلة بيرتون

إلى مصر والحجاز

الألف كتاب الثانى

الإشراف العام

وسمير سرحان

رئيس مجلس الإدارة

رئيس التحرير

لمعى المطيعى

مدير التحرير

أحمد صليحة

الإشراف الفنى

محمد قطب

الإخراج الفنى

محسنة عطية

رحلة بيرتون

إلى مصر والحجاز

الجـــزء الأول

تأليف
رتشارد ف. بيرتون

ترجمة وتعليق
د. عبدالرحمن عبدالله الشيخ

الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٤

هذه هي الترجمة العربية الكاملة لكتاب

PILGRIMAGE TO AL-MADINA AND MECCAH

by

RICHARD F. BURTON

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة الطبعة العربية	٧
الفصل الأول	
الى الاسكندرية	١٥
الفصل الثانى	
مغادرة الاسكندرية	٢٩
الفصل الثالث	
السفينة النيلية التجارية	٨٣
الفصل الرابع	
الحياة فى الوكالة	٤٩
الفصل الخامس	
شهر رمضان	٧١
الفصل السادس	
المسجـــد	٨٥
الفصل السابع	
الاستعداد لمغادرة القاهرة	١٠١
الفصل الثامن	
من القاهرة للسويس	١٢١

الموضوع	الصفحة

الفصل التاسع

السويس ١٣٥

الفصل العاشر

سفينة الحج ١٥٣

الفصل الحادى عشر

الى ينبـــع ١٦٦

الفصل الثانى عشر

التوقف فى ينبع ١٨٥

الفصل الثالث عشر

من ينبع الى بير عباس ١٩٦

الفصل الرابع عشر

من بير عباس الى المدينة (المنورة) ٢١٥

مقدمة الطبعة العربية

هـذه صفحات مفعمة بالحيـاة لأحوال مصر الاجتمـاعية والثقـافية والاقتصـادية بل والسياسية فى منتصف القـرن التاسع عشر ،يزيد من قيمتهـا أن كاتبهـا ليس بشخص عادى ، وانما رحالة عالم طبقت شهرته الآفاق هو الأيرلندى رتشارد بيرتون ، وسنتناول جهوده بايجاز فى ثنايا هـذه المقـدمة ٠

لقد قام بيرتون برحلته لمصر فى غضون سنة ١٨٥٣ أى فى أواخر عهد عباس باشا الأول (١٨٤٨ ـ ١٨٥٤) ولا يخفى أن مصر كانت يومئذ تمر بمرحلة انتقال خطيرة فقد فرضت الدول الأوربية على محمد على (١٨٠٥ ـ ١٨٤٨) الغـاء سياسة الاحتكار ، وكان لهـذا أثـره على اقتصـاد مصر ، وسـائر مظـاهر الحياة الاجتمـاعية فيهـا ٠ وحتى يكون للمعلومات المبثوثة فى هـذه الرحلة مذاقهـا كان لا بد أن نقدم للقارىء جانبا منها فى سياقه التاريخى ٠

الاحتكار : وهـو ببسـاطة يعنى ـ من بين مـا يعنـى ـ التوجيـه الاقتصادى للدولة من حيث العمل على تقليل الواردات وزيادة الصادرات، وتوجيه الصناعة والزراعة بما يخدم هذه السياسة ، وقد تحالفت الدول

الأوربية ـ كما هو معروف ـ مع الدولة العثمانية لاحباط سياسة محمد على فى هذا المجال ، ورفع القيود عن الواردات الأوربية لمصر ، واضعاف جيش محمد على ، عدته فى التوسع ومحور سياسته التعليمية والاقتصادية ، فعقدت بريطانيا معاهدة (بلطة ليمان) (نسبة لمدينة بهذا الاسم فى تركيا) مع الدولة العثمانية سنة ١٨٣٨ لالغاء الاحتكار التجارى فى مصر ، وبدأ تنفيذ هذه المعاهدة ١٨٣٩ ، ولما رفضها محمد على فرضتها دول أوروبا فى تسوية لندن ١٨٤٠ ، وبدأت المنتجات الأوربية تغزو مصر · هذه حقائق تاريخية معروفة مطروقة ، ولكن بيرتون يذكر لنا أن المسئولين فى مصر كانوا فى بعض المجالات يتحايلون ضد سياسة الغاء الاحتكار هذه ومن ذلك ابتداع نظام (الدور) فى النقل البحرى مما يعطى صاحب السفينة حق فرض الأجرة التى يريدها على المسافرين أو البضائع المنقولة ، لأن هذا النظام يعطيه وحده الحق فى أن يكون فى الميناء ، ولا يجوز لأى سفينة أخرى أن تشحن بضائع أو تسمح للركاب بالركوب الا بعد أن يغادر هو الميناء ليأتى دور سفينة أخرى تتحكم هى الأخرى (أو تحتكر) عملية الشحن بالسعر الذى تحدده · وكان عدد كبير من أسرة محمد على وحاشيته من ملاك السفن · (معلومة جديدة تهم المهتمين بتاريخ الاحتكار) ·

الفلاح : كان من النتائج الجانبية لالغاء سياسة الاحتكار التوسع فى ملكية الأرض الزراعية (ملكية رقبة لا ملكية انتفاع) ، فعرف الفلاح (حقه) فى زراعة ما يشاء ، و (حقه) فى ألا يضرب · لكن بيرتون لاحظ أن الفلاح كان يعى حقوقه (بالكلام) ولكن « الخميرة القديمة » ـ على حد تعبير بيرتون ـ كانت لاتزال كامنة فى اللاشعور · وفى معرض حديثه عن الرق فى الشرق يقول لنا بيرتون ان الرقيق فى مصر والشرق يعيش حياة أفضل كثيرا من حياة الفلاح المصرى (الحر) ·

الرقيق : أكثر محمد على من استقدام الرقيق واستعان بهم فى أمور شتى من بينها الجيش وفشل فى ذلك · ورغم أن الرقيق قد منع رسميا بعد ذلك الا أن بيرتون يحدثنا عن تجار رقيق فى القاهرة وعن صفقات بين جدة والاسكندرية وبين جدة والقاهرة · والطريف أن بيرتون يقول أن أوروبا تضخم هذا الموضوع فالرقيق فى الشرق يحظى بمعاملة كريمة ، لأن الشريعة الاسلامية تحث على ذلك ، ولأن مالك الرقيق أكثر ما يكون حرصا عليه لأنه يعتبره ملكا له ، ويقارن بين حال الرقيق وحال الفلاح المصرى بما ذكرناه آنفا ·

التجنيد : يذكر بيرتون أنه « حيثما يتجمع الناس فى المساجد أو المقاهى سارعت الشرطة فغلقت الأبواب وقبضت عنوة على القادرين بدنيا » فقد عاصر بيرتون أثناء زيارته لمصر نشوب الحرب التركية الروسية (١٨٥٣ ـ ١٨٥٦) ودخول مصر فيها الى جانب تركيا طبعا ، فكان اتساع حركة التجنيد ضروريا ٠

ولاحظ بيرتون أن الشعب المصرى تنادى بحركة « الجهاد » ضد روسيا وكان متحمسا تحمسا حقيقيا ٠

القضاء : يقول بيرتون انه فى مصر والشرق يفضل كثيرون استخدام « السكين والنبوت » للحصول على حقوقهم للبطء الشديد فى اجراءات التقاضى ٠ وكثرة حيله ومساربه ٠ ولابد من المامة تاريخية توضح لنا ما ذكره بيرتون فى رحلته عن القضاء فى مصر فى هذه الفترة ٠

ففى سنة ١٨٤٢ أنشأ محمد على هيئة قضائية عرفت « بجمعية الحقانية » لمحاكمة كبار الموظفين ، كما أنشأ « مجلس التجارة » وكان بمثابة محكمة تجارية لفض النزاع بين المصريين والأجانب ، وبين المصريين بعضهم وبعضهم الآخر ٠ وكان فى مجلس التجارة هذا أعضاء من الأجانب ٠ واستمرت المحاكم الشرعية تؤدى عملها فى مجال الأحوال الشخصية ، كما كانت هناك « مجالس الأقاليم » لفض المنازعات المدنية والتجارية ٠ وبعد الغاء سياسة الاحتكار تدفق الأجانب على مصر ، ولم يكن محمد على يسمح الا باستقدام الخبراء فى مجالات بعينها ٠ وقد استند هؤلاء الوافدون على الامتيازات الأجنبية التى كانت تعفيهم من الضرائب وتمنحهم الحق فى أن يحاكموا أمام قنصليات بلادهم ، واعتبر بيرتون هذا تجاوزا للحقوق الطبيعية للدولة المصرية ٠

ولما كان بيرتون فى مصر (بعد الغاء سياسة الاحتكار) كان عدد الدواوين (الوزارات) قد تقلص ليصبح أربعة فقط هى (الداخلية والحربية والمالية والخارجية) ٠

القفا Kafa : يقول بيرتون ان المصرى اذا تعامل مع « القواس » أى ضابط الشرطة ، أو دخل مركز الشرطة لأى أمر كان فلابد أن يعطيه المسئول « قفا Kafa » أى يضربه على قفاه حتى قبل أن تثبت عليه التهمة « انك تمر مع المتهمين الآخرين ليأخذ كل منهم « قفا » فاذا جاء دورك أخذت مثل الذى أخذوا » و « القفا » خاص بالمصرى دون سواه ، فاذا كنت أجنبيا تحرزوا فى اعطائك « القفا » وأحالوك الى قنصلية بلادك ٠

وربما كان ما ذكره بيرتون عن « القفا » فى أكثر من فصل من فصول رحلته هو السبب فى حساسية المصريين المعاصرين الشديدة من لمس (مجرد لمس) منطقة « القفا » هذه ، فلمس القفا فى السودان مثلا محبة ودعابة ، والضرب عليه مثل الضرب فى أى موضع آخـر ٠

ويحدثنا بيرتون باسـهاب عن الضرب بالفلكة أو (الفلقة) وكيف انها من الأمور المعتادة كأحد أساليب العقاب ، ويبدو أن ذلك قد استمر الى وقت متأخر فأستاذ الجيل أحمد لطفى السيد يحدثنا فى « قصـة حياتى » التى صدرت عن الهيئة المصرية العامة للكتاب (سلسلة المواجهة) أنه حتى العمد كانوا يضربون بالفلقة اذا تأخر فلاحوهم عن الدفع ٠ واذا كان العمد يضربون بالفلكة فبأى شىء يضربون فلاحيهم !!

الحجـــاب :

كانت المصريات فى عهـــد محمـد على محجبـــات (نسـاء المدن على الأقل) وفى أواخر عهد محمد على (بعد الغـاء سياسة الاحتـكار) تدفق الأجانب على مصر وزاد عددهم تدريجيا ، ومع هذا كانت كل النسوة محجبات حتى عهد عباس الأول بما فى ذلك غير المسلمات لدرجة أن بيرتون يذكر بامتنان كبير أن أحد السوريين المسيحيين فى مصر سمح له بالتطلع لوجه زوجته بغير خمار ، ومع كل هذا فان بيرتون يحدثنا ــ رغم الحجاب ــ عن مظاهر الفساد خاصة فى الأعياد ويقول : « ويلاحظ المسافر فى الشرق ــ بعجب ــ وجود بعض السيدات ليس لهن من العفة نصيب سوى البرقع » ومعنى هذا أن الحجاب وحده لم يمنع ممارسة الرذيلة ، كما أنه ليس دليـــلا عليهـا ٠

البرم : بضم الباء وفتح الراء هو الشخص الذى تحـول للاسـلام طمعا فى مكسب مالى أو للقيام بالتجسس ٠ فبعد الغاء سياسة الاحتكار وتدفق الأجانب على مصر ، ادعى عدد منهم الاسلام لا رغبة فيه ولـكن لولوج الحياة الاجتماعية لأهل البلاد ، يقول لنا بيرتون انه أراد أن يزور مصر والحجاز باعتباره مسلما أصيلا بالمولد ، لا مسلما متحولا (برم) ٠ وقد انصرف معنى هذه الكلمة الآن لمعان كثيرة مختلفة ، لكن مـا ذكره لنا بيرتون يمثل جذورها التاريخية ٠

الفرق بين علماء الأزهر والدراويش : كان من الطبيعى بعد اختلاف محمد على مع الزعامات الشعبية وابعاد عمر مكرم ، أن يتضاءل دور الأزهر ، ومضت فترة ليست بالقليلة قبل أن يستعيد دوره ــ وهذا الظرف

التاريخى يفسر لنا الأحوال المتدهورة للأزهر من حيث الامكانات المادية والآثار المعنوية عندما زاره بيرتون فوجد مكتباته خاوية ورجاله بؤساء ومقرراته هزيلة • وكان من الطبيعى أيضا بعد تدهور أحوال الأزهر ـ الذى قاد رجاله المقاومة ضد الحملة الفرنسية ، وقاد رجاله حركة تولية محمد على أمر مصر رغم ارادة السلطان ـ أن تظهر جماعات أو منظمات أخرى لتسد الفراغ الدينى والعلمى ، فحل خريجو المدارس الجديدة وأعضاء البعثات ـ الى حد ما ـ محل علماء الأزهر ، وان لم يكن لهم القاعدة الشعبية العريضة التى كانت لعلماء الأزهر (الزعامات الشعبية)، كما ازدهرت الطرق الصوفية وأساليب الدروشة لتملأ الفراغ وحازت شعبية كبيرة أكثر من ذى قبل •

ورحالتنا بيرتون يصفق لهذا تصفيقا شديدا قائلا انه لا خطر من هؤلاء فى مقاومة أى غزو أوروبى مرتقب لمصر • وقد اندمج بيرتون عندما كان فى الاسكندرية فى سلك الدروشة والطرق الصوفية ، ويبدو أن حظه كان عاثرا اذ وقع على جماعة منهم كانت عوراتهم ظاهرة ويتصرفون بفحش حتى انه قال ان المرء اذا بقى معهم سيجد نفسه « فوق الوتد أو تحت العصا » • والمعنى واضح •

البقشيش : يقول : انها أسوأ كلمة سمعتها عندما قدمت لمصر ، وآخر كلمة سيئة سمعتها عند مغادرة مصر ، ولكنه فوجىء بها فى الحجاز أيضا فزاد كمده •

الموظف الشرقى : فى هذه الفترة وجد بيرتون أن الموظف فى مصر والشرق لا يمكن التعامل معه الا بالتهديد أو الرشوة أو الالحاح الشديد بكثرة التردد عليه مصحوبا بالمعارف والأصدقاء •

***

ليس من هدفنا فى هذه المقدمة تقديم عرض لكل ما ورد بها ، لكننى كما ذكرت آنفا أردت ربط بعض ما ذكره بيرتون بالظروف التاريخية حتى يمكن فهمه وتذوقه • وحقيقة الأمر أننا أشرنا مجرد اشارات لبعض ما أورده بيرتون وهو كثير غاية الكثرة ، عميق غاية العمق سواء اتفقت معه أم لا • **فمن هو بيرتون هذا ؟** ولد هذا الأيرلندى المخلط سنة ١٨٢١ وتذكر الموسوعة البريطانية أنه من أصول انجليزية وأيرلندية وربما

فرنسية ، وهو أول أوروبى يكتشف بحيرة تنجانيقا ، وقد نشر ٤٣ مجلدا عن رحلاته وترجم الى الانجليزية من العربية والفارسية وغيرها ثلاثين كتابا بما فيها النص الأصلى لألف ليلة وليلة • اتقن ٢٥ لغة وأربعين لهجة وبرع بالاضافة للانجليزية فى الفرنسية والايطالية واللاتينية واليونانية بالاضافة لباقة من اللغات الشرقية • التحق بجامعة أكسفورد وتركها سنة ١٨٤٢ ليعمل ضابطا بالجيش البريطانى فى الهند اثناء خوضه الحرب ضد السند (باكستان الآن) • زار مصر وهو فى طريقه للحجاز سنة ١٨٥٣ وفى ١٨٥٤ زار هرر ، وخطط مع ثلاثة ضباط بما فيهم المكتشف الشهير سبيك Speke لكشف منابع النيل بالتوغل فى شرق أفريقيا ، وتوغل مع سبيك بالفعل فى شرق أفريقيا ١٨٥٧ ـ ١٨٥٨ ووصلا لبحيرة تنجانيقا ، واندفع سبيك منفردا ليكشف بحيرة فكتوريا كمنبع دائم للنيل ، مما أحنق بيرتون • وفى ١٨٦٠ ذهب بيرتون للولايات المتحدة ، وقام بعد ذلك برحلات قصيرة متتابعة الى غرب أفريقيا ، وكتب عنها خمسة كتب لاقت رواجا واهتماما لدى علماء الأنثروبولوجيا • هذا ما يمكن قوله فى هذه العجالة عن هذا الرحالة العظيم الذى نقدم رحلته لمصر فى هذا الجزء ونقدم بقية رحلته لمكة المكرمة والمدينة المنورة فى الجزءين للثانى والثالث • أبقى بعد ذلك شك فى أهميتها ؟ وقد أوتى بيرتون أسلوبا شيقا لا يخلو من روح الدعابة ، كما أن له براعة فى السرد ذى الطابع الروائى •

***

والعجيب أن بيرتون يسخر من تقليد بعض النظم الغربية ، ويعتبر أن هذا لا جدوى منه ، وأن الأفضل والأنجح هو استيحاء نظم من تراث الشرق لا بأس من تأثرها بحضارة الغرب ، أما استيراد نظم غربية لشعوب شرقية فهو أمر مضحك ، لذلك فهو يعتقد أن جهود الدولة العثمانية فى الاصلاح باصدار مجموعة قوانين وتنظيمات مستوحاة من الغرب هى (خط كلخانة) لن يؤتى نتيجة مثمرة • فالشرق يحتاج لحكومة متمدينة قاسية (حازمة) ويضرب مثلا بقبضة محمد على القوية على الحجاز وكيف أنها قللت كثيرا من اللصوص وقطاع الطرق وفرضت الأمن بعدالة (صارمة) ويسخر فى المقابل من الدولة العثمانية التى كانت تستنزف دماءها وتقدم أموالها كرواتب أو (رشاوى) لمشايخ العرب دون جدوى • قد لا يوافق كثيرون على هذه الاستراتيجية الاصلاحية فى بلاد الشرق (ومصر شرق) لكن المؤكد أن كثيرين يوافقون عليها وينادون بها •

ومما يؤخذ على بيرتون أنه أكثر الحديث عن فراسة الدماغ » أو علم الفراسة بمعنى الحكم على أخلاق شخص ما بتأمل ملامحه (عينيه وشفتيه ٠٠ الخ) أو تأمل تركيبه البدنى ، وهى نظريات شاعت فى القرن التاسع عشر ، ولم يعد لها أنصار كثيرون الآن ، ولا يميل لها علماء النفس المحدثون ٠

كما يؤخذ على بيرتون كراهيته الشديدة للهنود ، فقد انتقد أخلاقهم انتقادا مريرا ، ولا ندرى ماذا يريد بيرتون من الهنود غير كراهيتهم للانجليز الذين يستعمرون بلادهم ٠

***

لغة الرحلة :

عرض بيرتون رحلته بأسلوب صعب المرتقى كثير التلافيف طويل الجمل ، كما أغرق فى استعمال الصياغات البلاغية والتشبيهات التى استقاها من ثقافات مختلفة اغريقية وأوروبية معاصرة وعربية قديمة ، وعربية حديثة وهندية وافريقية ، مما يرهق قارئه ، ومترجمه من باب أولى ٠ وسيجد القارىء فى ثنايا هذه الرحلة ما يؤكد ذلك وسيجد فى بعض تعليقاتى ما يبين مدى الجهد والمعاناة والمتعة معا التى لقيتها عند ترجمة هذا النص المهم الذى نقدم للقارىء العربى ترجمته الكاملة للمرة الأولى ٠ وقد أفردت لكل جزء من أجزائه مقدمة أو دراسة مستقلة ، اذ تعرض بيرتون فى الجزء الأول لمصر غالبا ، وتعرض فى الجزء الثانى للمدينة المنورة غالبا ، وتعرض فى الجزء الثالث لمكة المكرمة ٠ بالاضافة لاستطرادات مفيدة وشيقة فى كل الأحوال ٠ والله من وراء القصد ٠

د٠ عبد الرحمن عبد الله الشيخ

الفصـــل الأول

الى الاسكندرية

الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية ـ الهدف الأساسى للرحلة ـ عن الربع الخالى ـ الفروق الفسيولوجية بين سكان شبه جزيرة العرب ـ بقايا الوثنيين فى شبه الجزيرة العربية فى القرن ١٩ ـ الخروج من لندن ـ سفينة البنغال ـ مقارنة بين الرجل الشرقى والرجل الغربى ـ كيف يشرب الهندى المسلم الماء ؟ ـ رأس الطين ـ الكيف والمزاج عند الشرقيين ـ شخصية الدرويش ـ البقشيش ـ وصف الاسكندرية ـ ممارسة الطب ـ الطرق الصوفية ٠

عرضت خدماتى على الجمعية الجغرافية الملكية بلندن فى خـريف سنة ١٨٥٢ ، عن طـــريق صديقى الصـــدوق الجنرال الراحل مونتيث Monteith قاصدا أن أزيل عن الكشوف الحديثة تلك الوصمة التى لحقت بها متمثلة فى وجود مساحات واسعة بيضاء (لا معلومات عنهـا) فى خرائطنا ، لا زلنا نشير لها بالمناطق الشرقية والوسطى من شبه جزيرة العرب ٠ وقد شرفنى الســـيد فريدريك ى ٠ مرشـــسون Murchison والكولونيل ب٠ يورك York والدكتور شو Shaw المفوضون عن هذه الجمعية الموقرة ـ بحماسهم المعتاد للكشـــوف واستعدادهم لشد أزر المكتشفين ـ بأن أيدوا بحرارة ـ فى لقاء شخصى مع رئيس مجلس المديرين (فى ذلك الوقت) بشركة الهند الشرقية البريطانية المنحلة ـ طلبى للحصول على اجازة مدتها ثلاث سنوات فى مهمة خاصة أغادر فيها الهنـــد الى مسقط ٠ الا أنهم لم يكونوا قادرين على إقناع الراحل جيمس هوج Hogg رئيس مجلس المدراء آنف الذكر ، الذى رفض التصديق على الطلب لأنه تذكر المآسى التى لحقت بجنود ورحالة متعددين فى الشرق فى الأعـــوام الغـــابرة ، وتـذرع بأن رحلتى المقترحـة فى الغـاية من الخطـورة ٠٠ وعلى أية حال ، فقد سمح لى ـ كتعويض عن خيبة الأمل التى حاقت بى ـ باجازة لمدة عام لمتابعة دراساتى العربية فى بلاد يتيسر لى فيها تعلمها على أفضـل نحـو ٠

ولم يبق الا أن اثبت ـ بالتجـــربة العملية ـ ان ما كان محفـــوفا بالمخاطر بالنسبة لغيرى من الرحالة ، آمن بالنسبة لى • فوجدت أن زيارة للحجاز هى بمثابة محك تجريبى ، فالحجاز هو أكثر مناطق شبه الجزيرة العربية صعوبة وخطورة فى آن واحد ، بالنسبة للأوروبيين الذين يمكنهـم دخولها • لقد كنت أنوى ـ بعد أن حصلت على الأجازة التى خصصت لى كمنحة ـ أن أذهب الى مسقط ، كنقطة بداية أفضلها ، لأوطن نفسى فيهـا بهدوء وثقة على اجتيـاز الصحارى • الا أننى الآن أود أن أبدا بزيارة الأماكن المقدسة للمسلمين أو بلاد الحرمين (الشريفين) التى يدافع عنها المسلمون بحمية ويمنعون غير المسلمين من دخولها ، وانى متعجل لهـــذه الزيارة وفى عز الصيف بعد أن أدت اقامتى لأربع سنين فى أوروبا الى تفلت كثير من معارفى عن الشرق من ذاكـرتى • وبعـد أن مررت بمحنة مصر Ordeal of Egypt (كانت مصر بالنسبة لى عذابا) فهى بلد تتسـم الشرطة فيه بالتطفل كالشرطة فى روما وميلان (١) •

وعلى أية حال ، فلأن الجمعية الجغرافية الملكية قد زودتنى ـ بسخاء ـ بما يتيح لى السفر ، ولأننى سئمت « التقدم » و « الحضارة » فى أوروبا ، ولنهمى لأن أرى بعينى ما قنع الآخرون بسماعه بآذانهم ، وهو الحيـــاة الداخلية (الحقيقية) للمسلمين فى بلادهم الأصلية (٢) ، ولرغبتى العارمة فى أن أحث الخطى لهذه البقاع الغامضة التى لم يقم رحالة مجاز (٣) (فى اجازة) حتى الآن بوصفها وقياسها ورسمها وتصويرها ، فقد عزمت على تقمص شخصيتى القديمة كدرويش فارسى ، وأن أحاول •

لقد كان الهدف الأول الذى راودنى هو عبور الجانب غير المعـروف من شبه الجزيرة العربية فى خط مباشر من المدينة (المنورة) الى مسقط ، أو أن أعبرها قطريا بميل من مكة (المكرمة) الى المكلا Makalla عـلى ساحل المحيط الهندى • أى نحس عائد تنفيذ خططى ؟! سيكتشف القـارىء ذلك بين ثنايا هذين الجزءين • أما أهدافى الثانوية فكانت متعددة • فقـد

---

(١) يتحدث بيرتون عن الشرطة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وقد تطورت شعارات الشرطة المصرية بعد ذلك تطورا كبيرا واصبح شعارها الآن (الشرطة فى خدمة الشعب) • (المترجم) •

(٢) فى الأصل : بلادهم الحقيقية realy وفضلنا ما أوردناه فى المتن لقربه من المعنى المقصود • (المترجم) •

(٣) بيرتون شغوف بالمباهاة فليس هو أول من زار الحجاز ، فقد زارها قبله فارتيما ، وجوزيف بتس وعلى بك العباسى وبوركهارت (١٨١٨ـ١٨١٩) بصرف النظر عن الاجازة • (المترجم)

كنت راغبا فى اكتشاف امكانية افتتاح أى سوق للخيول بين وسط شبه الجزيرة العربية والهند ، فقد كان ثمة استياء عام من المستوى المتدنى للافراس سواء أفراس السباق أو افراس الاستيلاد ٠

كما كان من اهدافى جمع معلومات عن الربع الخالى لندرجها فى خرائطنا ، وكذلك البحث فى هيدروجرافية الحجاز (علم مصادر المياه ووصفها) من حيث تجمعات المياه الناتجة عن الأمطار ، والمنحدرات الشديدة فى المنطقة ، ومعرفة ما اذا كانت هناك سيول دائمة أم لا ، وأخيرا محاولة التيقن ـ بالملاحظة الفعلية ـ من نظرية السكولونيل و ٠ سيكس Sykes والتى مؤداها انه اذا كان ما يتداوله الناس جيلا بعد جيل صحيحا ـ فلابد من وجود فروق فسيولوجية غير قليلة بين سكان شبه الجزيرة العربية المترامية الأطراف ، مما يحفزنا للتثبت من القضية التى نهتم بها عن الأصول العامة للعرب (٤) ٠ أما فيما يتعلق بالخيول فاننى مقتنع انه يمكن عمل شىء ما فى منطقة الساحل الشرقى لشبه الجزيرة العربية ، وليس من شىء يمكننا عمله ـ فى هذا الصدد ـ فى الساحل الغربى حيث الخيول ـ رغم أصالتها ـ مجرد كائنات غير صالحة للاستيلاد وأسعارها مرتبكة ولا يتيسر الحصول عليها الا مصادفة (٥) ٠ وقد سمعت عن منطقة الربع الخالى بما فيه الكفاية من رواة ثقات ما يفيد أنها منطقة ذات أبعاد مروعة ، وأنها تعج بأعداد كبيرة من السكان نصف الجوعى ، وتسود فيها الوديان والأخاديد والوهاد (أو المسيلات وهى وديان صغيرة ضيقة شديدة الانحدار) ـ وهى فى مجملها خصبة على نحو ما بفعل السيول التى تجتاحها بين الحين والحين ٠ ونخلص من هذا الى أن منطقة الربع الخالى منطقة مفتوحة (متاحة) للرحالة المغامرين ٠ وأكثر من هذا فاننى مقتنع أن شبه الجزيرة العربية التى تسود فيها المجارى المائية الصغيرة المنحدرة من التلال ـ على عكس ما ذكره الجغرافيون منذ

---

(٤) فى الأصل The arab family وقد آثرنا ما أوردناه فى المتن حتى لا يختلط المعنى ٠ (المترجم) ٠

(٥) حظى موضوع الخيول العربية باهتمام بالغ من كل الرحالة الأجانب منذ مطلع التاريخ ، فبارتيما خصص جانبا من رحلته (١٥٠٣) لمتابعة سلالات الخيل والتدريب عليها ، أما بلى الذى زار شبه الجزيرة العربية فى سنة ١٨٦٥ ، فقد أفرد ملحقا كاملا عن الخيل بالاضافة لاشاراته المختلفة لها من ثنايا رحلته ٠ ومن المفهوم ان الاهتمام بالخيل يقل لدى رحالة القرن العشرين لتضاؤل قيمتها تدريجيا فى الحروب ، وان كان من الملاحظ أن مشاهير الجواسيس الذين كشف أمرهم فى القرن العشرين فى منطقتنا كانوا يدعون (هواية) تربية الخيول وذلك ليجدوا جانبا مشتركا أو أرضية مشتركة بينهم وبين العرب الذين لا يزالون ، يحبون ، الخيول والصقور ٠ (المترجم) ٠

بطليموس (٦) حتى جومارد Jomard ـ ليس بها سيل (٧) (مجرى مائى) دائم واحد يستحق ان نطلق عليه نهرا · كما أن الشـــواهد التى ساقها لى أهل البلاد تدفعنى الى الظن أن شبه جزيرة العرب تنحدر صـــوب الجنـــوب (٨) وليس العكس ، وأنا فى ظنى هذا متفق مع فالن Wallin ومخالف لريتر Ritter وآخرين · وأخيرا فقد وجدت الدليل الـذى يجعلنا نعتقد بوجود ثلاثة أجناس محددة فى شبه الجزيرة العربية :

١ ـ أهل البلاد الأصليون ، ويمكن مقارنتهم بجماعات البيل Bhils وغيرهم من الهنود الأصليين ـ ويقطنون فى الصحارى الشرقية والجنوبية الشرقية المتاخمة للمحيط ·

٢ ـ السوريون أو العراقيون القـدماء (أهل ميزوبوتاميا) الـذين وصف شم Shem وجوكتان Joktan خصائصهم الأساسية ، وقد أزاح هؤلاء السوريون أو العـراقيون أهـــل البلاد الأصليين من أماكنهم الأثيرة ، ولا يزال هؤلاء الغزاة (الفاتحون) يستمتعون بما استولوا عليـه متمثـلا فى شعب شبه الجزيرة العربية العظيم (٩) ·

٣ ـ العشائر الشامية السورية المخلطة ونحن نمثلها بذرية اسماعيل (عليه السلام) وذرية ابنه نبوغث Napagoth وذرية Edom (عيص Esu ابن اسحق Isaac) الذين سكنوا ـ ولا زالوا ـ شـبه جزيرة ســـيناء ·

وفى معظم الأماكن ، بل وحتى فى قلب مكة المكرمة ذاتها ، تتـابلت مع بعض الوثنيين الذين كان محمد (صلى الله عليـــه وسلم) قد منـع

---

(٦) بطليموس عالم فلك وجغرافيا سطع جنمه فى الاسكندرية ١٢٧ـ١٥١م ، ولا علاقة لبطليموس هذا بالبطالمة أو البطالسة الذى حكموا مصر فى الفترة ٣٢٣ ـ ٣٠ ق٠م ·
(المترجم) ·

(٧) يطلق أهل الجزيرة العربية الآن لفظ « سيل » أو « المسيل » على المجرى المائى سواء أكان عامرا بالماء بعد هطول المطر أو بعد أن يجف ، فالمجرى (مجرد المجرى) هو سيل أو مسيل ، أما عملية هطول الأمطار وتحولها الى سيل أو مسيلات فيطلق عليها نفس الألفاظ ـ ويتم التفريق بين المعانى المقصودة بالسياق · (المترجم) ·

(٨) أصبح معلوما الآن أن شبه الجزيرة العربية ـ بشكل عام ـ تنحدر نحو الشرق والشمال الشرقى ، وأصبحت هذه معلومة مؤكدة يدرسها طلاب الجغرافيا فى المدارس · (المترجم) ·

(٩) ما يذكره بيرتون هنا مسائل لم تثبت تاريخيا ، وانما لا تتعدى كونهـا ترجيحات ، انما الثابت أن شبه الجزيرة العربية بعد الاسلام وحتى قبله كانت مركز طرد للهجرات البشرية ، لا مركز استقبال لها · (المترجم) ·

وجودهم أصلا ، فهؤلاء الوثنيون لا زالوا كثيـــرين (١٠) ، وقد ارجعهم المراقبون الجهلاء الى أصول حديثة اعتمادا على أدلة عقلية ٠

لقد توصلت الى هذه المقولة أثناء تجوالى صيفا فى الحجاز ٠ انهـا روايات شخصية ، وقد عملت على أن أجعل طبيعة هذه الاحاديث متفقة مع كونها « شخصية » (١١) ٠ ان كثيرين قد لا يحـذون حذوى ، وان كان آخـرون ربما يكونون شغوفين لمعرفة المعايير التى وضعتها فى اعتبارى لأظهر فجأة كرجل شرقى على مسرح الحياة الشرقية ، وربما يجد رحـالة المستقبل فى سرد ذلك شيئا مفيدا لهم ، ولا أقدم اعتذارا عما يشبه الغرور فى روايتى هذه ٠ وهؤلاء الذين شعروا بالحاجة الى « صديق صامت » يقدم لهم النصيحة دون أن يتحتم عليهم طلبهـا ، سيقدرون ما قد يبدو للعيابين كثيرى النقد مجرد تدفق عقل رجل مصاب بتضخم الذات ٠

فى مساء الثالث من شهر أبريل سنة ١٨٥٣ غادرت لندن الى سوثامبتون Southampton ، وبناء على نصيحة الأخ الضابط الكابتن هنرى جريندلى (كولونيل آلان) فى سلاح فرسان البنغال فقد تم تجهيز ملابسى الشـــرقية قبل مغادرة لندن كما تم اعطاء كل حاجياتى طابعا شرقيا تماما (لم يـكن الناصح وهو الكابتن هنرى ولا المنصوح وهو صاحب الرحلة يدركان وقتها مدى قيمة وأهمية هذه النصيحة) ٠ وفى بكور الصباح التالى استقل الأمير الفارسى (١٢) مصحوبا بالكابتن جريندلى الباخرة الفاخرة ذات الرفاس والموسومة باسم « البنغـال » التابعة لشركة شبه الجزيرة والشرق ٠

---

(١٠) ملاحظات بيرتون هنا عن بقاء وثنيين فى شبه الجزيرة العربيـة الى وقت متأخر (القرن التاسع عشر) صحيحة فيما يبدو وأكدها رحالة آخرون ومن ذلك ما ذكره « بلى » فى رحلته للرياض ١٨٦٥ (نشر جامعة الملك سعود) صص ٤٦ـ٤٧ : « ٠٠ توجد حتى الآن (١٨٦٥) كهوف منحوتة فى جبل طريق ٠٠ هى بمثابة معابد لدين قديم ٠٠ وظل أهل المكان يوقرون هذه المعابد ٠٠ ونجد أن آل مرة فى الجنوب لم يتحولوا للاسـلام الا منذ وقت قريب » لكن بعد ظهور الدعوة السلفية بدأت هذه الجيوب الوثنية ـ التى عمرت طويلا مستغلة اتساع شبه الجزيرة العربية وكثرة شعابها ووهادها ـ تتلاشى تدريجيا ٠ (المترجم) ٠

(١١) من الواضح أن بيرتون يؤكد هنا أن ما ذكره من معلومات سابقة ليست مؤكدة وانما هى معلومات شخصية جمعها دون التثبيت منها ٠ المقصود هنا معلوماته عن أصول سكان شبه الجزيرة العربية ٠ (المترجم) ٠

(١٢) يقصد نفسه ٠ (المترجم) ٠

لقد قضيت أربع عشرة ليلة مفيدة فى التآلف مع العادات الشرقية ، لأن ما قاله السيد شستر فيلد Chesterfield المهذب عن الاختلاف بين الشخص ونقيضه يمكن أن ينطبق بشكل ملحوظ على أحوال الرجل الشرقى من ناحية والرجل الغربى من ناحية أخرى ، فقد يؤدى كلا الرجلين العمل نفسه أو يؤديا الدور نفسه فى الحياة ، لكن طريقة أداء كل منهما تختلف اختلافا واضحا جدا • انظر ــ على سبيل المثال للمسلم الهندى وهو يشرب كوب ماء • ان شرب كوب ماء بالنسبة لنا فى أوروبا مسألة بسيطة فى الغاية من البساطة ، لكن الأمر ليس كذلك بالنسبة للمسلم الهندى ، انها عملية بالنسبة له تشتمل على ما لا يقل عن خمسة أمور غير مألوفة لنا • فبادىء ذى بدء نجده يقبض على كوبه قبضا غليظا كما لو كان يقبض على رقبة عدوه ، ثم يقول بقوة : « بسم الله الرحمن الرحيم » قبل أن يبلل شفتيه، ثم يشرب الماء مبتلعا اياه ولا يرشفه رشفا كما ينبغى أن يكون الشرب ، ثم ينهى شربه بأن يتجشأ تجشؤ (١٣) الرضى ، ثم انه قبل أن يضع الكوب يتنهد قائلا : « الحمد لله » ، وعليك أن تدرك أن لهذه الكلمات معنى عميقا فى الصحراء ، وخامسا فانه يجيب صديقه الذى يقول له : « هنيئا » بقوله : « هناك الله » كما أنه ــ أى شارب الماء ــ يكون حريصا على تجنب الأمور التى حرمها الشرع عند الشرب فهو لا يشرب واقفا الا عند الاستثناءات التى حددها الشرع وهى شرب ماء زمزم ، والشرب من ماء الصدقة ، وشرب الماء المتبقى من الوضوء (١٤) ، وأكثر من هذا فان اليدين (اليمين والشمال) تستخدمان فى أوروبا دون تمييز ، أما فى العالم الاسلامى فيجب أن يستعمل الانسان يده اليمنى فى الامساك بالمسباح وشرب الماء ، وقد ينسى الأوربى وهو يتقمص دور الرجل الشرقى فيسىء استعمال الكرسى ، فالرجل الشرقى القح يضم ساقيه بعد ثنيهما ، ويبدو دائما مرتاحا فى جلسته هذه كأنه بحار على ظهر حصان يجرى خببا ، ويمد أصابعه للامام وينظر نظرة رزينة ، وعادة ما ينطق فجأة بعبارات دينية •

ان رحلتنا فوق « بحر الصيف » كانت بلا جدوى ، ففى سفينة بخارية حمولتها ألفان أو ثلاثة آلاف طن تكتشف أن ما كان مرهوبا قد غدا تافها مألوفا فلم يكن أمامن سوى الأمواج العاتية ، ولم يكن أمامى من انجاز سوى أن أجلس جلسة مزعجة متمثلا قول الشاعر :

---

(١٣) استخدم بيرتون لفظ grunt وهو الذى صوت الخنزير (القباع) وقد أثرنا ما أوردناه فى المتن لأنه المعنى المقصود • (المترجم) •

(١٤) هذه « عادات » وليست بالضرورة من الشرع أما البسملة فى البداية و « الحمد » فى النهاية فمن السنة الصحيحة • (المترجم) •